بقلم زوا لنون أيوب

حين عزمت على دراسة اللغة الالمانية ، قررت ان انتهز كل فرصة تساعدني على تحقيق ما انتويه،وكان من جملة هذه‌الفرص التسمع الى احاديث الناس وحوارهم ، لا بدافع الفضول ، واستكناه الاسرار ، ولكن للتمرن على فهم اللغة سماعاً ، واتقان لغة الكلام . فقد بدا لي ، اول الامر ، ان الفرق شاسع بين الكلام الدارج واللغة الفصحى ، فالالماني عندما يتكلم يبتلع مقاطع باكملها ، وقد يختصر جملة بكلمة . وبعد تمرن شاق ، وارهاف طويل للسمع ، بدأت افهم الحوار شيئاً فشيئاً ، بفهم جزء منه احياناً . لهذا السبب صرت اكثر من التردد على « كافي باري » ،فهذا المقصف قد يزدحم بالناس الى درجة استحالة المرور بين المقاعد ، فيصبح الجلاس حول المناضد الصغيرة ، وكأنهم مشتركون في جلسة واحدة وقد يتقاربون حتى ليكاد البعض يحتضن البعض .

قصدت هذا المقهى صبيحة يوم احد مبكراً ، وكان المقهى يوشك ان يغص بالرواد ، واخترت منضدة منزوية ، وبعد ان علقت معطفي الثقيل ، جلست ، واخرجت كتيب الحوار الذي اعتدت ان اقضي بعض الوقت باستظهاره . وما كادت النادلة « اركا » تلمحني حتى اقبلت باشة مرحبة . و « اركا » هذه من اجمل النادلات ، فلها وجه صبياني وعينان ضاحكتان وقامة رشيقة ولعل هذه الاركا من جملة ما يجب لي التردد على هذا المقهى. وقد الفتني الصبية لطول ترددي على المقهى ، وكنت اتقصد الجلوس دوماً في منطقة عملها ، فصارت تبادلني التحية ، وتتبسط في الكلام . وتطلعت في عيني اركا اللتين يختلط السواد بالزرقة فيهما اختلاطاً عجيباً ، وابتدرتها مسروراً :

— كيف انت اليوم يا اركا، انك لتزدادين رشاقة وجمالاً يوماً بعد يوم، واني لاخشى ان اقع في هواك كغيري من الزبائن .

فاشرق وجهها وزقزقت عجبة :

— شكراً جزيلاً سيدى ، وانت تتقدم في اللغة بسرعة. كأس من الجعة، اليس كذلك ؟ انك من القلائل الذين يفضلون الجعة في شتاء فينّا القارس . »

فاجبتها ضاحكاً ببيت من الشعر كنت قد حفظته ذلك اليوم

لا شوق يعلّق بالرقاص ولا بالعقرب ابصاري ،
لا آهة - من رهبٍ — تعلو :
من رنة مفتاحٍ في البابْ
وضياءٍ من شقٍ ينسابْ
كالماء المالح أشربه حتى تتفطر اغواري !
ولقد يتأخر او يأتي
قبل الميعاد إلى البيتِ
لكنْ سيعودْ
لا لوْم عليه ، فقد أعطى ما اطلب منه ، ولا عَتبْ !
خَدم ، ورياشٌ ملء البيت ، وأبهة .. دنيا ، ونقودْ.
— « .. ماسٌ ، وبقيّتها ذهبْ :
وهديّة والدها ؟! أنّه هدية والدها .. عجبْ :
صيادٌ بين يديه شباكْ
تتلامح ملأى بالاسماكْ...
ذهبٌ وزعانفُ من فضه
ولآلىء تُوهمُ ان هيا كلها تثبْ
وبأنّ لصائدها خضه ! »
تموز يموت ، ومرجانه
تتعوّذ ، من عُقد السحرِ
والليلُ الراكد ، بالحِضْرِ .

والليل يطفّيء شُطآنه
والضيفة تقبع بردانه
وفراء الذئب تُغطّيها ..
وتطفّأت النيران اللاتي كانت بالدم تُذكيها .
ليل وجليد ،
يتساقط عبرهما صوتٌ ؛ رنات حديد
وعواء ذئابٍ يُخفيها..
الصوت بعيد ،
والضيفة مثلي بردانه .

فتعالَ وشاركني بردي .
بالله تعالْ..
يا زوجي ، ها أني وحدي
— والضيفة مثلي بردانه —
فتعالَ ، تعال
فامامك وحدكَ أقدرُ أن أغتابَ الناسَ بلا استثناءْ
بالله تعال
فالناس كثيرٌ .. والظلماءْ
نقالة موتى سائقها اعمى ، وفؤادك جبّانه !

بغداد

بدر شاكر السيّاب

« النار تجري في عروقي والقلب بالافراح عامر . »

فاتسعت عيناها العجيبتان وقالت :

– غوته ؟ انك لماهر ايها الهر ايوب !

– لو كنت ماهراً يا اركا لما اتيت الامور من اعاليها، فانت ترين انني احفظ غوته لكي ارتب جملة صحيحة .

وانطلقت اركا تتجول بين الموائد وتوزع ابتساماتها على الزبائن دون تفريق . وسرعان ما اكتظ المقهى بالرواد، ولمحت شاباً ورفيقته يتجولان حائرين ؟ ولفت نظري جمال الشابة ، فقد كان فيها حقاً ما لفت انظار اغلب الرواد. كان جسمها رشيقاً ممتلئاً معاً ، يتوج رأسها شعر ذهبي داكن. اما العينان فلوزيتان بلون السماء عند الغسق تحيط بهما اهداب طويلة سوداء تلقي على ما يحيط بهما ظلاً ساحراً : ولست ادري كيف خطت تقاطيع وجهها بتلك الدقة العجيبة فجاءت متناسقة تناسقاً مدهشاً . وذكرني لون بشرتها بلون الخزف الصيني النقي الاصيل . واقتربا من منضدتي ، وتمنيت لو شاركاني فيها . وكأن هذا التمني كان نداء لهما فاقبلا ، واشار الشاب الى الكرسيين الخاليين حول منضدتي :

– اتسمح ايها السيد لنا بالجلوس ؟

فاجبته مستبشراً : دون شك تفضلا على الرحب والسعة .

والقت السيدة نظرة على كتابي ، ويظهر انها اطمأنا الى درجة جهلي اللغة الالمانية ، فخاضا في الحديث بكل حرية دون ان يعبأ بوجودي ، واتيحت لي فرصتان ، فرصة التمرن بالسماع ، وفرصة الاستطلاع والفضول ، فقد كان حديثهما مثيراً شيقاً ، فارهفت اذني ، وسجلت الحديث باختصار. وكان خطي العربي الغريب مصدر دهشتهما واطمأنانهما معاً . وعلمت ان اسمها هرتا ، ولا ادري كيف تذكرت بيتاً من الشعر يورد شاهداً على بعض شواذ القواعد في اللغة العربية :

خذا بطن غرثى او قفاها فانه
كلا جنبي غرثى لهن سبيل

قالت الغانية مفتتحة الحديث :

– انكم معشر الرجال فجرة فاسقون .

– ألا استثنى من هذا التعميم يا هرتا ؟

– تستثنى ؟ قد تكون في الطليعة . انك كغيرك من الرجال لا ترى في المرأة الا لعبة تصلح للهو يمل منها سريعاً وتستبدل باخرى ، غير مبالين بما يسببه عبثكم الصبياني من تعاسة وآلام للمرأة المسكينة .

– ولكن تذكري يا هرتا المثل النمسوي السائر « الرجل كلمة واحدة اما المرأة فعندها كتاب . »

– ان هذا لا يصدق في كل الاحوال ، انه يصدق على الشابات الحديثات اللواتي يذقن اللذة المحرمة قبل سن البلوغ ، واللواتي يبدلن الرجال كما يبدلن الملابس ، وحتى هؤلاء لا يلبثن بعد ان يتقدمن بالسن قليلاً ان يتقن الى حياة الزيجة والاستقرار ، فيحلمن بالزوج المخلص الطيب ، والبيت الهادىء السعيد .

– ولماذا لم تتزوجي حتى الآن يا هرتا وانت على هذا المستوى الرفيع الرائع من الجمال ؟

– ذلك لان الرجال المهذبين نادرون في فينا ، والغرباء اكثر منهم ذوقاً وادباً ، ان الرجل من فينا لا يقدر المرأة هنا حق قدرها ، اما الغريب الاجنبي فهو ذو ثقافة مهذب .

– رأيك صائب الى حد ما ، ولكنك لو زرت البلاد الاجنبية لرأيت النساء هناك يشتكين مما تشتكين منه انت .

– لعل ذلك يرجع الى ان المرء لا يرى حسنات ما بين يديه، فالانسان يمل ما الف ويعمى عن حسنات ما يملك، اما الغريب فيرى في الجديد متعة وفي الغرابة لذة .

– ها انت ذا يا هرتا تبدين عقلاً وحصافة وتنطقين بالاحكام الصائبة .

– لو لم ترفق كلماتك المعسولة بمثل هذه الابتسامة الساخرة لصدقتك .

– ها قد عدنا الى الخصام يا هرتا ! فكلما ضحكت صحت بوجهي ان ضحكتك المجنونة تسخر مني .

– ذلك لاني اقرأ ما تعني الابتسامة أو الضحك والقهقهة كما افقه ما تقول العينان حين تنظران .. انظر الى ذلك الرجل الذي ينظر الي ، بودي ان اقذف شيئاً في وجهه ، وان نظراته تعني اقبح المعاني واحط المطاليب ، كم يزعجني للبعض حين يرمونني بمثل هذه النظرات .!

– اولا يسرك ذلك يا هرتا ؟ ان النساء قاطبة يتقن الى ذلك ، انهن يرغبن في ان يشتهين الرجال ، ان هذا الرجل المسكين يتمنى فقط ، او ليس له الحق حتى في هذا التمني ؟

– قد يكون هذا الرجل اهون شراً من سواه، فقد ضايقني احدهم مرة بالحاحه ، حتى الجأني الى ان اعطيه وعداً كاذباً لاتخلص منه ، ولقد شكوت ما اعاني من هؤلاء الرجال الى احدى صديقاتي، فقالت الصديقة معللة ان رجال فينا يحبون الاجسام الرشيقة الممتلئة قليلا ويعزفون عن البدينات او الهزيلات العجاف .

– ها انت ذي قد ادركت السبب يا هرتا، ان هؤلاء الرجال يدركون بمجرد النظر ان لك جسماً دافئاً لذيذ الملمس عذب المذاق .

– ما اقبح ما تقول! انك لا تفتأ تردد امثال هذا الكلام البذيء ، اني لاتصورك احياناً احط رجل في فينا .

– وانت تبدين احياناً، حين تخشنين القول وتثيرين الشجار، من احط نساء فينا . انك حين تشتمين يا هرتا اشك في انك فينوية بالرغم من شكلك وصفات جسمك .

– هل اغضبتك مرة اخرى ؟ ارجو معذرتك ، لست سعيدة كما تعلم وهذا ما يثيرني احياناً ويجعل حديثي خشناً مراً . اني لاحتار في حقيقة امرك ، فاي نوع من الرجال انت ؟ لقد تشاجرنا كثيراً ، فلم تتركني رغم كثرة شتمي لك ، ولم اتركك بالرغم من انك تثيرني حين تخلق كثيراً في وجه الحسان .

– لقد زعمت انك تدركين ما تقوله العينان حين تنظران ، فما قالت عينا جليسنا الاجنبي حين نظرتا الى وجه اركا ؟ هيا برهني على انك حصيفة حقاً .

– ان النظرة رقيقة بريئة ، وهي اشبه بنظرة فنان الى اثر فني .

– اوليس لي نفس الحق في التملي بالاوجه الجميلة المعبرة ؟

– ولكنك تفعل ذلك بشكل يثير غيرتي. اني اريد ان تكون نظراتك لي وحدي .

– انك تدركين ايضاً بان اعجابي بالجمال مبعثه الدوافع الفنية، والا لما اصطبرت حتى الان ولما طالت صحبتنا .

– لقد استغربت صديقتي شارلوتي ان تطول صحبتنا الى اكثر من شهرين، وقالت انه يليق بنا ان نتزوج فاخبرتها بانك متزوج ، وهي معي بأن الزواج لا يعني شيئاً اذا كان اسمياً ، ولا اعتراض لي على ذلك ، لولا انك رجل قلب . اني اريد رجلا لي وحدي. لقد بلغت الثلاثين وقد كان الاحرى بي ان اتزوج ، ولعل سوء طالعي هو الذي رماك في طريقي .

– ولكنك تعيدين ما اعتادت زوجتي ان تقول ، وتقذفينني بمثل ما تقذف .

– قد تكون محقة ، ولعلك قد اذقتها العذاب حتى نفرت منك .

– ها قد عدنا الى التنادي في العدوان يا هرتا .

– معذرة، فليس لي الحق في الشكوى ، فما انت الا انت منذ رأيتك، واعترف بانك لم تخف عني شيئاً ، ولكني طمعت ان تكون الرجل الاخير في حياتي على كل حال ، ولكن سوء طالعي يرميني دائماً في مشاكل انا في غنى عنها .

– اذن فلنغير الموضوع يا هرتا . حدثيني عن مسعاك في ايجاد عمل لك بعد هذه السنة من البطالة والاعتماد على مساعدة دائرة الاعمال الزهيدة ؟

– لقد تتبعت الاعلانات في الجرائد ، ووجدت بعض الاعلانات عن طلب موظفين لدوائر تجارية ، ولكني تبينت بعد المراجعة ان السادة التجار يطلبون عملاً مزدوجاً ، فهم يطلبون من الموظفة ان تكون خليلتهم خارج اوقات الدوام ايضاً ، كل ذلك لقاء ذلك الراتب الزهيد، وخير لي في مثل هذه الحالة ان استحصل اجازة من الشرطة واتسكع في كرانبن . لقد شكوت حالي اخيراً الى الدكتور يونس عضو المجلس البلدي فوعدني خيراً .

– كم يؤلمني ذلك يا هرتا ! علي ان انسيك بعض هذه الهموم ، فاين تريدين ان تغرقي احزانك ؟ ان الاقبية في فينا خير مكان لدفن الاحزان. اتفضلين اوكستينا ام اوربانى ام لعلك تشتهين قبو الدومينيكان ؟

– لقد بدأت اخاف من اصطحابك الى مثل هذه الحانات ، فانت حين تنتشي تنقلب رجلاً آخر .

– ولماذا لا تقولين انك حين تنتشين تصبح عيناك كالجمر في رؤية ما يثير غيرتك ؟

– هات يدك ولنكف عن الشجار .

– ولكن حذار من ان تنشي فيها مخالبك الجميلة . وان ذلك من عاداتك السيئة . فلو كنت تدركين كم تؤلم هذه الاظافر المصبوغة المدببة لتركت هذه العادة السيئة .

– اعلم ذلك ، وعادتي السيئة الاخرى هي ان اجبرك على تقبيلي كلما مررنا بسرب من الحسان ، اوليس من حقي ان اعلن لهن انك محجوز ؟

– او بعبارة اصح محجور عليه ؟ . لقد حجرت علي زوجتي قبلك فهربت منها ، فلماذا تفعلين ما يزهدني فيك ويحبب الي الهرب ؟

– انها تفعل ذلك لانها زوجتك ، اما انا فلاني احبك ، وشتان بين الدافعين .

وانشغل الشاب عن الجواب بدعوة اريكا لاداء الحساب ، ثم تناول معطف رفيقته فالبسها اياه بكل عناية ورفق ، وقبل طرف شعرها الذي اصبح قريباً من وجهه عندما احتواها المعطف ، ولم ينسياني عند الذهاب ، فالتفتا الي مبتسمين وقالا معاً « الى اللقاء » فاجبتهما بالمثل « اوفيدسن . »

فينا — ذو النون ايوب

قضايا الفكر المعاصر

سلسلة كتب تتناول اهم القضايا الفكرية التي تشغل المثقفين اليوم ، مع دراسة وافية لاعلامها وممثليها العالميين

صدر منها :

١. سارتر والوجودية

تأليف ر.م.البيريس — ترجمة الدكتور سهيل ادريس

٢. كامو والتمرد

تأليف روبير هولوبيه — ترجمة الدكتور سهيل ادريس

تطلب من دار العلم للملايين